القبض

زنبل (١)

بقلم الأديب حسين شوقى

إذا كان المسيو هريو الوزير الفرنسى الكبير قد أبدى لدى عودته من موسكو إعجاباً شديداً بروسيا الشيوعية فى أحاديثه الى مندوبى الصحف ، فانى أعرف كائنا ما كان ليشاركه فى إعجابه لو كان حياً ، وهذا الكائن هو قطتنا زنبل ، لأن زنبل كانت أرستقراطية بحقيقة معنى الكلمة ، ويحسبها نبلا أنها من مخدرات قصر يلدز . وإنى محدثك كيف آلت الينا : كنا فى الاستانة بعد خلع السلطان عبد الحميد ، وكان أثاث القصر يباع يومئذ بالمزاد العلنى ، فذهبنا نشاهد ماعرض من طرائف التحف ونفائس الكنوز لأن شهرة يلدز بهذه العجائب لاتقل عند الناس عن شهرة مغارة «على بابا» فى الف ليلة ذهبنا الى القصر على غير نية الشراء لأن والدى كان يعارض فى ابتياع شىء من يلدز احتراما لذكرى عاهلها المخلوع . وكان يجله ويرى فيه رمزاً لمجد الامبراطورية العثمانية التى بدأ ظلها يتقلص فعلا بعد سقوطه ، ولكن ما كادت أبصارنا تقع على زنبل القطعة الأنقرية الجميلة حتى وقفت لاتريم عنها انصرافا . وانقسمنا فريقين فريقا من الصغار (نحن) يتمسك بالشراء ، وفريقا من الكبار يعارض فيه ، وانتهى الخلاف طبعاً بانتصارنا ، اذ كان لابد من انقاذ زنبل من الحالة المهينة التى كانت عليها فى تلك الساعة ، فقد وضعت فى قفص ضيق حقير ليشاهدها الرائحون والغادون . . فدفعنا الثمن خمسة جنيهات وحملناها معنا . . أما طرائف القصر الأخرى فكانت عادية لا تزيد على نظائرها فى سائر القصور الملكية . .

مازلت أذكر زنبل خلال ضباب الماضى البعيد ، وهى جالسة على مقعد من القطيفة فى الصالون الصغير بمنزلنا القديم بالمطرية ، ترتل أناشيدها فى هدوء وطمأنينة . . وكم كان شعر زنبل جميلا يحاكى بياضه الناصع الثلج الذى يحلل جبال الاناضول وطنها العظيم ، وكانت نعومة شعرها أشبه شىء بنعومة الزئبق . .

أما عيناها فكانتا تعكسان ماتشاهده على ضفاف البوسفور من خضرة زمردية بديعة . .

وكان لحم كفيها ناعماً طريا الى حد اننا كنا نجد لذة فى القبض على تلك الأكف الظريفة . .

كان صيد الفيران والصراصير من الأمور الحقيرة التى لاتعرض لها زنبل ، كما تفعل ذلك القطط الاخرى . .

لأن تسلية زنبل الوحيدة كانت أن تسحب أمامها خيطا فتجتهد هى أن تقفه بضربات يدها الصغيرة . . وطالما جررنا لها ذيلها لنوهمها انه خيط عادى فكانت المسكينة تصدق ذلك فتوسعه ضربا . .

وفى ذات يوم وقعت حادثة أدهشت من بالمنزل جميعا وهى أن زنبل حامل ! رباه ! كيف زلت زنبل الأرستقراطية ؟ كيف خالطت زنبل قطط الحى وهى كلها قطط عادية شعبية لاتمت لانقرة بنسب؟ ولكن زنبل وكأنها شعرت بالخطيئة الكبيرة التى ارتكبتها ما كادت تضع حملها حتى هجرت صغارها ، فاضطررنا ان نغذى هؤلاء الصغار تغذية صناعية . كانت زنبل على حق فى هجر أطفالها لأن هؤلاء الصغار كن من الصعاليك لايليق أبداً ان ينسبن اليها . . !

بعد مرور عامين على هذا الحادث ، وعودة زنبل الى حياتها الأولى الهادئة ، عزمنا على قضاء بضعة أشهر فى الخارج ، فعهدنا الى أحد الخدم برعاية زنبل ، والعناية بوجه خاص بغذائها ، وهو دجاجة مسلوقة كل يوم ، وكانت زنبل لا تأكل منها الا اللحم . . ولكن لدى عودتنا من أوربا فوجئنا بخبر وفاة زنبل ، على أثر مرض لم يمهلها طويلا . . كما قال الخادم المكلف بخدمتها . . أما الحقيقة التى عرفناها بعد ، فهى أن ذلك الخادم الخبيث كان يأكل دجاجة زنبل ويعطيها عظمها فترفضه زنبل . . وهكذا فقدت حياتها ، ولكن فى كرامة وأباء ! كما يفعل الأرستقراطيون الاصلاء . .

كرمة ابن هانىء

حسين شوقى

(١) لفظ تركى معناه البرد بفتح الراء